

القيم الجمالية في خطاب الشرع وأثرها في الحياة

Aesthetic values in Sharia discourse and their impact on life

د/ مية مفتاح أحمد*

جامعة وهران 1، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، ahmedmef@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/06/21 تاريخ القبول: 2021/07/07 تاريخ النشر: 2021/09/30

الملخص :

يتناول هذا البحث مجموعة من الأمثلة ببعض التفصيل، عن القيم الجمالية في خطاب الشرع، والتي حملتها ما سقته لها من آيات قرآنية وأحاديث نبوية؛ سواء كان ذلك في اللفظ، أو في ما يدل عليه بالمعنى كالحسن والزينة؛ فكانت الدعوة - بأسلوب بليغ ومؤثر - إلى النظر والتأمل في جمال الخلق وروعته، من سبل تثبيت العقيدة في نفوس المؤمنين؛ وكانت الشرائع العملية في العبادات مثل الوضوء والصلاة، أو في العادات كحسن الهيئة والمحافظة على جمال الطبيعة؛ هي المرأة التي تعكس جمال التشريع الإسلامي جملة وتفصيلاً، وأنه الأفضل والأمثل شكلاً ومضموناً، فلا يدانيه شيء، ولا يقارن به آخر؛ مما جعله مصدر إلهام للمسلمين، فطبعوا بالذوق الجمالي دنياهم، وخلدوه بما يسر الأنظار في النقوش والزخارف والخطوط، تزينت بها القصور والمساجد والكتب والحمامات والأثاث والأواني وغيرها، مما يعسر حصرها في المشرق وفي المغرب .

وهكذا يجب أن يكون الجمال خادماً للقيم السامية والوظائف النبيلة، والتمتع بالحياة دون سرف أو ترف، وتحقيق آمال المجتمع وعلاج آلامه، ولا يختصر فيما يضر ولا ينفع مثلما هو مشهور ومشاهد اليوم .

الكلمات المفتاحية : قيم؛ جمال؛ حسن؛ زينة؛ عبادات .

Abstract :

This research deals some examples of aesthetic values in Sharia discourse, which were conveyed by the Qur'anic verses and Prophetic hadiths. The beauty and splendor of creation was one of the ways to establish belief in the Muslim souls, and the practical Sharia in worship or habit were the mirror of the beauty of Islamic legislation in its entirety and detail, and that it is the best and the optimum form and content;

Which made him a source of inspiration for Muslims, so they printed the aesthetic taste of their world, and they immortalized it in inscriptions, motifs and others, which is difficult to count .

Thus, beauty should be a servant of lofty values, noble jobs, enjoyment of life without excess, fulfilling the hopes of society and treating its pains, and not be reduced to what is harmful or useless, as it is famous today.

Keywords : values; aesthetic; good; adornment; acts of worship .

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، وعلى من سلك دربه واقتفى أثره إلى يوم الدين، أما بعد :

فإن الإنسان مفطور على حب الأشياء الجميلة، سواء كانت في القول والفعل، أو كانت بالنظر والسمع وسائر الحواس، فيغمره السرور والانشراح، مما قد ينشطه بعد فتور، ويسليه بعد قنوط؛ والإسلام الذي راعى المصالح الحقيقية في جميع أحكامه وتشريعاته، لا يعارض الطبيعة السوية أو يثبطها، وإنما يحفظها من أن يُلبس الهوى على صاحبها أو يزيغ به الشيطان، فيسيء الضعاف لأنفسهم من حيث يحسبون أنهم يحسنون صنعا، أو ينحرفوا بها الأشرار عن الصالحات إلى المفساد، تحقيقاً لأغراضهم الخفية ومآربهم الدنية، دون أن يكثرثوا إن أفسدوا البلاد وأضرروا بالعباد؛ وقد يظن ظان أن حث الإسلام على إثارة الآخرة على الدنيا، معناه الانصراف الكلي عن هذه إلى تلك، فلا ينتبه إلى نصوص كثيرة تدعو إلى التوازن بينهما، ومراعاة الفطرة البشرية وأحوالها، مثلما نقلت الآية نصح قوم موسى عليه السلام لقارون : ﴿ وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٧٧) ولا يلتفت أيضاً إلى المئات من الشواهد على اهتمام ديننا بالجمال - مثلاً - نصاً وعملاً، واجتهاد علمائنا له تنظيراً وتنزيلاً؛ وإنما يقصر نظره على ظاهر نصوص، فيتقول بها دون أن يفهم سياقها ولا مآلها، ولا يراجع أهل العلم فيها؛ نحو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (رواه مسلم، ر 2564) فهو يشير إلى أن الصورة الحسنة وكثرة المال - وهما مما ترفعان منزلة أهلها بين الناس - لا تغنيان عن وجوب حسن نية الفرد وصلاح أفعاله؛ فلا بد إذن من أن يعتني أيضاً

بالقلب، لتصلح بصلاحه أعمال الجوارح؛ مثلما جاء في حديث آخر : « ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب » (رواه البخاري ر 52، ومسلم ر 1599)؛ وعليه فليس التقوى في أن يلبس ثياب رثة، ولا أن يمشي بتدلل وانكسار، ويهتم بمظهره ويهمل مخبره، وإنما السعيد من جمع بين الجمالين، ونال بهما الحسنين، وحسبنا دعاء النبي ﷺ : « اللهم حسن خُلقي، فحسن خُلقي » (رواه ابن حبان، ر 959).

وهذا البحث جاء ليساهم في بيان ذلك؛ بما يسرده من آيات قرآنية وأحاديث نبوية، تدل دالة قاطعة على اهتمام الإسلام بالحسن والجمال إجمالاً، وتشريع بعض مواضع الأخذ به تفصيلاً؛ لذا كان موسوماً بـ: القيم الجمالية في خطاب الشرع وأثرها في الحياة؛ جمعت فيه بين منهج الاستقراء والاستدلال والتحليل، مع الالتزام بالمنهجية العلمية المتعارف عليها، كعزو الآيات إلى مواطنها، وتخريج الأحاديث من كتبها، وهي صحيحة أو حسنة؛ والإحالة عند الاقتباس بذكر المصدر أو المرجع؛ وهذه الطائفة من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة إنما هي على سبيل التمثيل، لأنه لا يمكن استقراؤها كلها، ولا حصر مجالات الجمال فيها، سواء كان ذلك باللفظ، أو بما يدل عليه عادة كالحسن والزينة، وسواء في الحسيات أو في المعنويات؛ وحسي أن تعطي نظرة واضحة عن ذلك، وتشير إلى غيرها؛ فما لا يدرك كله لا يترك كله؛ وتوهم أيضاً إلى الأثر الذي ظهر فيما بعد عند المسلمين من زخرفة بالنقوش والخطوط تسبي الأنظار، وبساتين وحمامات تريح البجن والنفس؛ وما خلدوه في الأندلس شاهد قوي عليه، خاصة في مدينة الزهراء وقصر الحمراء بغرناطة؛ ولم أخض في فلسفة الجمال ولا اختلافات الناس فيه، كي لا أحيد عن صميم الموضوع؛ واخترت أن يكون تقسيمه بعد مقدمة، على مبحثين تحت كل منهما ثلاث مطالب وخاتمة، بهذا الشكل :

مقدمة :

المبحث الأول : النظرة الجمالية في النصوص الشرعية

المطلب الأول : مفهوم الجمال، المطلب الثاني : الجمال في القرآن الكريم، المطلب الثالث :

الجمال في السنة النبوية

المبحث الثاني : النظرة الجمالية في شرائع الإسلام

المطلب الأول : الجمال في العبادات، المطلب الثاني : الجمال في الهيئات، المطلب الثالث :

الجمال في الطبيعة والبيئة .

المبحث الأول : النظرة الجمالية في النصوص الشرعية :

قبل الحديث عن الجمال في النصوص الشرعية، وما تركه من أثر في حياة المسلمين، لا بد من النظر في مفهومه عند أهل اللغة وغيرهم، ولو بإيجاز.

المطلب الأول : مفهوم الجمال :

عرف أهل اللغة الجمال بما هو معروف عند عامة الناس، فقال عنه الجوهري : "والجمال الحسن"¹، وقابله ابن دريد وابن فارس وغيرهما بنقيضه، فقالوا : "الجمال، وهو ضد القبح"²، وبين الفيروزآبادي بأنه يكون في المعنويات والحسيات، فقال : "والجمال : الحسن في الخلق والخلق"³؛ وهذا يناسب ما جاء في الحديث السابق.

أما عند غيرهم، فلا يوجد اتفاق بينهم على تعريفه أو حده؛ لأنه صفة تختلف باختلاف الأنظار والأذواق، وليس محلاً للتقدير ليُحسم الخلاف فيه؛ وقد ذكر ابن القيم بعضها، فقال : "قليل إنه تناسب الخلقة، واعتدالها واستواؤها" ثم أضاف ليصرح بالعجز والامتناع عن الإحاطة به، لاختلاف الناس فيه : "وقيل الحسن معنى لا تناله العبارة ولا يحيط به الوصف، وإنما للناس منه أوصاف أمكن التعبير عنها"⁴ وحاول الغزالي قبله أن يضبطه، أو يضع له إطاراً مناسباً، فقال : "كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به، الممكن له، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة، فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر"⁵.

وأحاله أيضاً الفلاسفة إلى الأنظار والأذواق، فقالوا عنه : "صفة تلحظ في الأشياء، وتبعث في النفس سروراً ورضى" وجعلوا له علماً يبحث في مقاييسه ونظرياته⁶.

¹ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط 4، 1407 هـ / 1987 م (1661/4)

² أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جبهة اللغة، تحقيق : رمزي منير بعلبيكي، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط 1، 1987 م (491/1) وأبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، معجم مقاييس اللغة، المحقق : عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، 1399 هـ / 1979 م (481/1)

³ أبوطاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق : مكتب تحقيق التراث بإشراف : محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط 8، 1426 هـ / 2005 م، ص (979)

⁴ ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، د ط، 1403 هـ / 1983 م، ص (232)

⁵ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت-لبنان، د ط، 1402 هـ / 1982 م (299/4)

⁶ د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت-لبنان، 1414 هـ / 1994 م (408-407/1)

المطلب الثاني: الجمال في القرآن الكريم:

الفرع الأول: الجمال الذاتي للقرآن الكريم:

إن مما تميزت به معجزات الرسل عليهم السلام، أن كانت المعجزة من جنس ما اشتهر عند أقوامهم، كالسحر عند قوم فرعون، فجاءهم موسى بعصا تتحول إلى أفعى تأكل أفاعيهم التي يخيل للناظر أنها تسعى¹، وكالطب في قوم عيسى، فجاءهم بإحياء الموتى وغيره²، والفصاحة والبلاغة عند العرب، فجاءهم محمد ﷺ بالقرآن الكريم، الذي أخذ بالألباب، وترك أصحاب السليقة والصنعة في حيرة وارتياب، حتى قال الوليد بن المغيرة: "والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا بشر"³ قبل أن ينكص على عقبيه، متأثراً باستفزاز أبي جهل له، فقال ما سجله القرآن الكريم: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ﴾⁴ وليته التزم وقال ما قالته الجن: ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۖ﴾⁵.

ولا أسترسل كثيراً في الإشارة إلى الإعجاز في نظم القرآن فأنشغل عن لب الموضوع، خاصة وأنه سيظهر بعضه في الآيات الموالية، لذا أكتفي بالإشارة لما هو معروف من اهتمام العلماء به، فكتبوا فيه فصولاً، وأفرده بعضهم بالتأليف، كإعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني، والنكت في إعجاز القرآن للرماني، ومعتزك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي، وغيرهم.

¹ طه، (65-69) ﴿فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ. قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ. وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كِبْدٌ سَاجِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾

² آل عمران، (49) ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بَآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِى الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

³ أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي البهقي، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، المحقق: أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت-لبنان، ط 1، 1401 هـ، ص (268)

⁴ المدثر، (24-25)

⁵ الجن، (1-2)

الفرع الثاني : ذكر الجمال لفظاً :

جاء ذكر الجمال باللفظ في القرآن الكريم في الصفات الحسية والمعنوية، فمن الأول ذكر جمال الأنعام - وأشهرها عند العرب الإبل - فوصفها حين تركض إلى المرعى، ثم تعود إلى حظائرها مليئة البطون، بعد أن عدد بعض منافعها، فقال جل جلاله : ﴿ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ ۱ ﴾¹ وتقديم الإراحة على التسريح، لأن الجمال عندها أقوى وأبهج، حين تقبل ملأى البطون حافلة الضروع².

ومن الثاني، أي لفظ الجمال في المعنويات، نجد وصف الآية للصبر الذي لا جزع معه ولا يأس : ﴿ فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝ ۳ ﴾³.

أما الصفات التي تظهره، فهي كثيرة ومتنوعة، وفي القسمين أيضاً؛ وأختار منها الأقرب إليه، والأشهر بين الناس.

الفرع الثالث : الدلالة اللفظية على الجمال :

ما دام حب الجمال فطري في الإنسان، فلا عجب في أن يذكر بلفظه، وبأخرى تدل عليه، بل وبمعاني أبلغ في وصفه؛ سواء في الحسيات أو في المعنويات، ولأخذ عن ذلك بعض الأمثلة.

فمن أكثر الألفاظ الدالة عليه، لفظا الحسن والزينة، وكم ذكرهما القرآن الكريم في مواطن كثيرة، فمن الأول ما وصف به الله عز وجل خلقه، فقال : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ ۴ ﴾⁴ أي وافياً بالمقصود منه، مصنوعاً على ما ينبغي⁵، ومثاله "صلابة الأرض للنبات، وسلاسة الهواء للاستنشاق، وقبول الانشقاق لسهولة الاستطراق، وسيلان الماء لنقدر عليه في كل موضع، وحركة النار إلى فوق، لأنها لو كانت مثل الماء تتحرك يمناً ويسرة لاحترق العالم"⁶

¹ النحل، (6-5)

² ينظر : أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420 هـ (176/19) ومحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، للدار التونسية للنشر، تونس، 1984 هـ (105-104/14)

³ المعارج، (5)

⁴ السجدة، (7)

⁵ ينظر : التحرير والتنوير (215/21)

⁶ مفاتيح الغيب (141/25)

ووصى نبيه ﷺ أن يختار من الطرق الحسنة أحسنها عند مجادلة أهل الكتاب، لإقامة الحجة عليهم بما كتموه من علم، فقال له: ﴿وَجَدَلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَرُ﴾¹.

أما لفظ الزينة، فيتقدمه وصف السماء والأرض بها: الأولى مرصعة بالنجوم والكواكب، والثانية بأنواع الزروع والثمار، والنخيل والأشجار، والأنهار والبحار، والجبال والراسيات، وصنوف الحيوانات، وغيرها؛ وكم يستمتع الإنسان حينما ينظر إليهما وما فيهما، أو حينما تحسن رسم ذلك الأنامل، وما أجمل هذه الآيات الكريمة صوتاً وصورة، لفظاً ومعنى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾^٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رَزَقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾².

وهكذا يؤدي النظر في جمال الخلق، وما فيه من الدقة والإتقان كما قال سبحانه: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ﴾³ و ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾⁴ إلى الإيمان بالإله الحق العليم الحكيم، وتثبيت عقيدة التوحيد في نفوس المؤمنين، لذا دعت آيات كثيرة إلى تقليب الأبصار، والتأمل في ملكوت السماوات والأرض، فالعقل الصحيح يؤوب إلى الدين الصحيح، ويقول قول المقر الموحد: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾⁵.

وأما المعاني المناسبة، والتي يكون بها وصف الجمال أبلغ من اللفظ، نجد منها في الحسيات لون بقرة بني إسرائيل، التي أمرهم موسى عليه السلام بذبحها وحياً من الله تعالى لمعرفة القاتل، وكان وصفها في الآية: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾⁶ فهي أشد صفرة، و"لحسن لونها تسر من نظر إليها"⁷.

¹ النحل، الآية (125)

² ق، (11-6)

³ النمل، (88)

⁴ القمر، (49)

⁵ آل عمران، (191)

⁶ البقرة، (69)

⁷ مفاتيح الغيب (548/3)

وأما في المعنويات، فمن أمثلته، قول الله تعالى في لين الخطاب مع الوالدين: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾¹، وفي وصيته لنا بالإحسان مطلقاً: ﴿وَاحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾²، بل حتى في الفراق بين الزوجين، الذي هو مدعاة للفضح والنزاع، قال تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾³، فإما الإمساك بما هو متعارف بين الناس، وإما الانفصال دون إلحاق أي ضرر، سواء كان حسيّاً أو أدبياً؛ وغير ذلك مما يطول إيرادها في مختلف الأنواع.

إذن قد جمع القرآن الكريم بين الدعوة إلى توحيد الله عز وجل والنظر في زينة الأرض والسماء، وبين بحسن اللفظ والمعنى حين الإرشاد، إلى فضائل الأعمال من عبادة وأخلاق؛ وعلى هذا الهدى يجب أن يسير الفنان المسلم مثلاً، فيجمع بين جمال الرسم والدعوة إلى دينه، كاصطفاف المصلين خلف إمامهم، أو ناس يترقبون الهلال، أو رجل يرفع يديه إلى السماء يدعو، أو امرأة متحجبة أو في ملّحفة تحمل صبيها، وغير ذلك؛ وهو في الوقت ذاته يدعو المتهاونين إلى الالتزام بواجباتهم نحو دينهم، وغير المسلمين إلى اعتناقه؛ ومثل هذا أيضاً يجب توظيفه في المسرح والفيلم وغيرهما لخدمة الإسلام وتشجيع قيمه؛ فيجمع القائمون على العمل بين الجودة ونشر تعاليمه، كتجسيد ما تدعو إليه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة أو اقتباس حكم منهما، عوض مشاهد العنف والانحلال، وبث القيم الفاسدة للغرب؛ وحسبنا أن نذكر هنا فيلم الرسالة وأثره البليغ في النفوس إلى يومنا هذا، خاصة أوائل عرضه في منتصف سبعينات القرن الماضي مع بروز الصحوة الإسلامية؛ وكذا بعض الأفلام الثورية عندنا، كمعركة الجزائر وأولاد نوفمبر؛ وروعة تصويرها لجهاد شعب ضد غاصب ظلوم غشوم؛ وهكذا يجب أن يكون الأدب والفن وغيرهما خادمين للدين، فلا يغيب عن ذهن المسلم ذلك؛ بل إنه سيبدع أكثر وأفضل حينما يكون منه منطلقه وهدفه ووسيلته، وحينما يعالج هموم مجتمعه واهتماماته؛ فالغاية النبيلة تحسن إبرازها الوسيلة الجميلة، والصورة أبلغ في الخطاب؛ خاصة وأن لنا ميراثاً ثرياً لا يضاهاى، وقيماً أصيلة نحسد عليها.

¹ الإسراء، (23)² البقرة، (195)³ : سورة البقرة، الآية (229)

المطلب الثاني : الجمال في السنة النبوية :

اهتمت السنة الشريفة أيضاً بالجمالين الحسي والمعنوي، وباللفظ وبالمعنى، في أحاديث كثيرة قولية وفعلية، وفي مجالات متنوعة، وفيما يلي إيراد لبعض الأمثلة عن ذلك.

الفرع الأول : ذكر الجمال لفظاً :

جاء ذكر الجمال بلفظه في بعض الأحاديث؛ نحو ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : "أن ابنة لعمر كانت يقال لها عاصية، فسمها رسول الله ﷺ جميلة" ¹ فغير اسمها من العصيان، الذي هو من صفات الذم إلى لفظ الجمال، الذي كان مما يسعى به في زمنه، ومنه نفهم استحباب تغيير الاسم القبيح إلى آخر حسن.

الفرع الثاني : الدلالة اللفظية على الجمال

لم يكن تغيير الأسماء من المعاني السيئة إلى الحسنة إلا مع عاصية بنت عمر، وإنما وقع مع أمثالها أيضاً ممن أبدل النبي ﷺ أسماءهم، فالعاصي بن الأسود سماه مطيعاً²؛ وأخبرنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه بما سعى به أبناءه أولاً قبل أن يغيرها رسول الله ﷺ، فقال : "لما ولدت فاطمة الحسن جاء النبي ﷺ فقال : «أروني ابني ما سميتموه ؟» قال : قلت : سميتته حرباً، قال : «بل هو حسن» " وتكرر الأمر ذاته مع حسين ومحسن³، والحسن يدل على الجمال والحياة عوض الحرب، وما تشير إليه من القتل وسفك الدماء.

وتغيير الاسم من لفظ مكروه إلى آخر لائق جد مهم، لأنه سيلازم صاحبه طوال حياته، وقد يؤثر في نفسه إن تركناه عليه، ويخجله أمام الناس.

وحتى المواضيع سن لنا ﷺ أن نغير أسماءها السيئة إلى أخرى حسنة؛ فدار هجرته - مثلاً - كانت تسمى يثرب، التي معناها التوبيخ واللوم⁴، وغيّرها إلى : المدينة وطيبة وغيرهما، مثلما سمع أبو هريرة رسول الله ﷺ يقول : «أمرت بقرية تاكل القرى، يقولون يثرب، وهي

¹ رواه أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري، الصحيح، المحقق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، د.ت، (ك الآداب، ب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، ر 2139، 1686/3)

² رواه مسلم (ك الجهاد والسير، ب لا يقتل قرشي صبرا بعد الفتح، ر 1782، 1409/3)

³ رواه أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، ط 1، 1411 - 1990 (ك معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ب ومن مناقب

الحسن والحسين ابني بنت رسول الله ﷺ، ر 4773، 180/3) وصححه، ووافقه الذهبي

⁴ كما في سورة يوسف، الآية (92) قوله لإخوته ﴿لَا تُرِيْبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

المدينة¹»² فأمر بالهجرة إلى أرض ستغلب سائر البلاد³؛ ولنا أن نتذكر هنا في الجزائر، مدينة الشلف التي غير اسمها من الأصنام إلى اسم الوادي الذي يمر بها، عقب الزلزال الذي ضربها في العاشر من أكتوبر 1980؛ ونعم ما فعل.

وفي التشجيع على الخير، ولو بالدلالة عليه، روى أبو مسعود الأنصاري رحمته الله أن رسول الله ﷺ قال: « من دل على خير، فله مثل أجر فاعله »⁴، والخير لفظ عام يدل على النفع، وطرقه متعددة لا تحصر، محبب إلى النفوس، تود الأذن سماعه، والعين رؤية أثره؛ وجاء هذا الحديث ليرغب الناس إلى سبل الخيرات ترغيباً عظيماً، بنيل مثل أجور المستجيبين، مثل الحديث الآخر: « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء »⁵.

وفي النقاء من الخطايا بالصلوات الخمس؛ روى أبوهريرة - تشبهاً له بالنقاء من الأوساخ في الجسد - قول رسول الله ﷺ: « رأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ » قالوا: « لا يبقى من درنه شيء » قال: « فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا »⁶ فالنقاء من الأوساخ المعنوية بالصلوات اليومية، كالنقاء من الأوساخ الحسية بتكرر الاغتسال خمس مرات يومياً، وهذا تصوير جميل وتمثيل بليغ، وقياس ما هو معنوي على ما هو حسي، بل زاد التمثيل جمالاً اقترانهما غالباً مع بعض حين استشعار كثرة الذنوب.

¹ ذكرهما القرآن الكريم: الأولى على لسان المنافقين في سورة الأحزاب، الآية (13) « يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا » أي لا مقام لكم حول الخندق فارجعوا إلى دياركم، والثانية في سورة التوبة، الآية (120) « مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ » عتاًباً لمن تخلف عن غزوة تبوك ضد الروم، آخر غزواته ﷺ

² رواه مالك بن أنس الأصبحي، الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي، تحقيق: د. بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت (ك الجامع، ب ما جاء في سكنى المدينة والخروج منها، ر 2594، 464/2) ومن طريقه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الصحيح، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422 هـ (ك فضائل المدينة، ب فضل المدينة وأنها تنفي الناس، ر 1871، 20/3)

³ وهو ما حصل حينما دانت الجزيرة للإسلام في حياته ﷺ، ثم تتابعت الفتوحات في عهد الخلافة الراشدة

⁴ رواه مسلم (ك الإمارة، ب فضل إعانة الغازي في سبيل الله، ر 1893، 1506/3)

⁵ رواه مسلم (ك الزكاة، ب البحث على الصدقة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة، ر 1017، 704/2)

⁶ رواه مسلم (ك المساجد ومواضع الصلاة، ب المشي إلى الصلاة تمتع به الخطايا، وترفع به الدرجات، ر 667، 462/1) والبخاري (ك مواقيت الصلاة، ب الصلوات الخمس كفارة، ر 528، 1112/1)

وفي توقع الخير عوض الشر، سمع أبو هريرة رسول الله ﷺ يقول : « لا طيرة، وخيرها الفأل » قالوا : وما الفأل ؟ قال : « الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم »¹ فنهى النبي ﷺ عن التشاؤم وتوقع الشر، وأبدله بالتفاؤل، وفسره بالكلمة الطيبة التي يسمعها الإنسان فيدخله السرور وينشط بسببها، عوض ما يفتر همته، ويشل حركته، ويوجعه في مكانه، من ترقب شر مقبلاً عليه، بالشعور أنه فعلاً قد وقع، أو أنه سيقع لا محالة في ذلك.

بل إن التفاؤل وترك التشاؤم امتد ليشمل الرؤيا يراها المسلم في المنام، ثم يقوم بقصها على الناس؛ فروى أبو قتادة قول النبي ﷺ : « الرؤيا الحسنة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان، وليتفل ثلاثاً، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لن تضره »² فالرسول ﷺ يضيف الرؤيا التي ظاهرها حسن إلى الله عز وجل إضافة تكريم وتشريف، ويضيف الأخرى إلى الشيطان لأنها على طبعه، من بث الحزن والكراهة³؛ وفي الوقت ذاته يجيز لنا أن نخبر بالأولى دون الثانية؛ ومرة جاءه أعرابي فقال : "إني حلمت أن رأسي قطع فأنا أتبعه " فزجره النبي ﷺ وقال : « لا تخبر بتلعب الشيطان بك في المنام »⁴ وهكذا يريد منا أن نستبشر خيراً في الرؤيا الصالحة، ونقصها على من نحب، خاصة إذا كان يحسن تعبير المنام؛ ولا نرى في السيئة نذير شؤم، فنستلم إلى الهواجس ونتوجس الخوف ونستعجل السوء، وأنه حق سيقع .

كانت هذه بضع أمثلة من سنة نبينا ﷺ، تظهر فيها جلياً القيم الجمالية في المحليين الحسي والمعنوي، وسأضيف لها أخرى في مطالب المبحث الموالي .

¹ رواه البخاري (ك الطب، ب الطيرة، ر 5754، 135/7) ومسلم (ك السلام، ب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم، ر 1745/4، 2223)

² رواه البخاري (ك التعبير، ب إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها ولا يذكرها، ر 7044، 43/9) ونحوه مسلم (ك الرؤيا، ر 2261، 1771/4)

³ ينظر : أبوالفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق : د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط 1، 1419 هـ / 1998 م (206/7)

⁴ رواه مسلم (ك الرؤيا، ب لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام، ر 2268، 1776/4) عن جابر

المبحث الثاني : النظرة الجمالية في شرائع الإسلام :

المطلب الأول : الجمال في العبادات :

إن الحسن والجمال ونحوهما، ثابت في شرائع الإسلام أصولاً وفروعاً - وقد مضى بعضها - زينتها مسحة التنوع واليسر، والتمثيل والبشر، ولأبدأ بالصلاة، أكد الأركان بعد الشهادتين؛ فمن شرطها الوضوء، وبارز فيه قصد النظافة الظاهرة كالوجه والأطراف، والباطنة كالفم والأنف؛ أما هي فلو كانت على شكل واحد لملمها الناس ودخلتهم السامة، وإنما جمالها في اقتصارها على خمس موزعة على ساعات اليوم، ثنتان في النهار، ومثلها في الليل، والمغرب وسط بينهما؛ وليست متساوية في صفة الركعات ولا في عددها؛ فهي إما سرية أو جهرية؛ وإما ثنائية أو ثلاثية أو رباعية؛ وهذا ما يضيف بهاء وجمالاً عليها، ويكون أكثر في صلاة الجماعة، حينما يقف المصلون دون تمييز بينهم، صفوفاً مترابطة لا فرجة فيها أو اعوجاج، بانضباط تام في اتباع حركات الإمام، في القيام والجلوس، والركوع والسجود، بوقار وصمت، وسكينة وسمت.

ونظير ما في الصلاة يوجد أيضاً في الصيام وغيره، فإمساك المسلمين في شهر واحد، وهو رمضان؛ وأهل البلدة الواحدة في وقت واحد مع أذان الفجر، وإفطارهم في وقت واحد، مع أذان المغرب؛ ثم ذهابهم زرافات ووحداناً إلى المساجد لصلاتي العشاء والتراويح، يسر النظر، ويترك جماله الحسي والمعنوي أثراً طيباً في النفس، أما في الحج فيكفي أن أذكر منظر المحرمين، وهم وقوفاً في جبل عرفات متضرعين؛ أو حين طوافهم بالبيت.

المطلب الثاني : الجمال في الهيئات :

الهيئة هي المظهر الخارجي للإنسان، ولا بد له من الاعتناء بها حتى يحترمه الناس، وإلا نفروا منه وغدا عند بعضهم مدعاة للسخرية والتسليّة، وبيانها في النظافة، وحسن اللباس مما وجد، وإصلاح الشعر، وطلاقة الوجه،

الفرع الأول : النظافة والتجمل :

شرع الإسلام لأتباعه أن يغتسلوا ويتطيبوا ويحسنوا هيئاتهم عند إرادة الصلاة والوقوف بين يدي الله عز وجل، فقال سبحانه: ﴿يَبْنَىءَ آدَمَ حُدُوءَ زَيْتَكُمُ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾¹ ويتأكد الطلب يوم العيد الأسبوعي للمسلمين، كما روى سلمان الفارسي عن النبي ﷺ قوله:

¹ : سورة الأعراف، الآية (31)

« لا يغتسل رجل يوم الجمعة، ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدهن من دهنه، أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام، إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى »¹، فمن جملة أسباب المغفرة: الاغتسال والتطيب؛ وأرشد النبي ﷺ المستطيع يومها، إلى استبدال ثوب مهنته، وما فيه من رائحة عرق وربما قذى، بآخر نقياً جميلاً، فقال: « ما على أحدكم إن وجد سعة، أن يتخذ ثوبين لجمعته، سوى ثوبي مهنته »² أي قطعتين، كرداء وقميص أو جبة؛ ومما يستنبط من هذا الحديث: ترغيب من وجد سعة أن يتخذ الثياب الحسان للأعياد والجمعات، ويغتسل ويتجمل ويتطيب؛ فتحسن هيئته وتزكو رائحته، عوض الثياب التي يمتنها في سائر أوقاته³.

بل إن التجمل مشروع في عموم الوقت؛ إلا ما استثني كالإحرام في الحج، وإحداذ المرأة على زوجها أثناء عدة الوفاة، فعن عبدالله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبَر » قال رجل: " إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: « إن الله جميل⁴ يحب الجمال، الكبير بَطَر الحق، وغَمَط الناس »⁵ فالرسول ﷺ صحح مفهوم الكبر الذي قد نعممه في كل لباس أنيق، فبين بأنه ليس في التزين، وإنما في التكبر وعدم الانقياد إلى الحق، وفي احتقار الناس واستصغارهم؛ أما اللباس الحسن دون أن تصحبه نية الخيلاء والتبختر فليس بكبر، بل هو مطلوب ومرغب فيه، إظهاراً لنعمة الله تعالى على عبده؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده »⁶، ورأى مرة أبا الأحوص عوف بن مالك رث الثياب، فسأله: « ألك مال ؟ » فأجابته: " نعم يا رسول الله، من كل المال " فقال له:

¹ رواه البخاري (ك الجمعة، ب الدهن للجمعة، ر 883، 3/2)

² رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، السنن، التحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط 1، 1430 هـ / 2009 م (ك إقامة الصلاة والسنة فيها، ب ما جاء في الزينة يوم الجمعة، ر 1096، 349/1) عن عائشة

³ ينظر: أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي، المنتقى شرح الموطأ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة-مصر، ط 2، (203/1) وأبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري، المسالك في شرح موطأ مالك، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1428 هـ / 2007 م، (467/2)

⁴ تعددت شروح العلماء له منها: الجليل: مالك النور والبهجة؛ جميل الأفعال بكم، لطفاً ونظراً إليكم

⁵ رواه مسلم (ك الإيمان، ب تحريم الكبر وبيانها، ر 91، 93/1)

⁶ رواه أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، السنن، التحقيق: إبراهيم عطوة عوض، شركة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط 2، 1395 هـ / 1975 م (ك أبواب الأدب، ر 2819، 123/5) وحسنه

« إذا آتاك الله مالاً، فلير أثره عليك »¹، وذلك بأن يلبس ما يليق بحالك من النفيس والنظيف²، والجديد دون مبالغة في النعامة³، ليكون الشعور بفضل الله وكرمه، مما يورث شكره على نعمه الظاهرة والباطنة، وهو ما وعته الصحابة رضي الله عنهم جيداً؛ قال عمر بن الخطاب: "إذا أوسع الله عليكم، فأوسعوا على أنفسكم"⁴.

فالإسلام يريد أن يجمع الناس بين جمالي المظهر والمخبر، لذا لا يقصره على الجمعة والعيد، ولا على اللباس فقط؛ بل يعديه إلى سائر أنواع الحلال، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾⁵؛ لكن في الوقت ذاته لا يجيزه بإطلاق، وإنما يحفظه بضوابط لتبقيه على وظيفته الحقّة، كالنهي عن الإسراف؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾⁶ والنهي عن الترف كقول الرسول ﷺ: « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة »⁷ والنهي عن الخيلاء والتكبر، ونهى المرأة عن التبرج لغير محارمها، وغير ذلك مما هو معروف ومبثوث في كتب الفقه والأخلاق؛ وهذا يكون اللباس - الذي هو من مظاهر تكريم الله عز وجل للإنسان - في أحسن وظائفه مظهراً ورائحة، خاصة حين اجتماع الناس، مما يحجب إليهم مجالسة صاحبه.

¹ رواه الترمذي (ك أبواب البر والصلة، ب ما جاء في الإحسان والعفو، ر 2006، 364/4) وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط 1، 1430هـ / 2009 م (ك اللباس، ب في غسل الثوب وفي الخلجان، ر 4063، 168/6) وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، السنن الكبرى، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلي، أشرف عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط 1، 1421هـ / 2001 م (ك الزينة، ب الجلال، ر 9484، 388/8)

² ينظر: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت- لبنان، 1379 هـ (260/10)

³ ينظر: أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البيهقي، شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق وبيروت، ط 2، 1403هـ / 1983 م (49/12)

⁴ رواه مالك (ك الجامع، ب ما جاء في لبس الثياب للجمال بها، ر 2646، 498/2)

⁵ الأعراف، الآية (32)

⁶ الأعراف، الآية (31)

⁷ رواه البخاري (ك الأطعمة، ب الأكل في إناء مفضض، ر 5426، 77/7) ومسلم (ك اللباس والزينة، ب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء، ر 2067، 1637/3) عن حذيفة

الفرع الثاني : إصلاح الشعر :

لا يتم حسن الهيئة دون تهذيب الشعر بتسريحه وتنظيفه؛ وهو ما لم يغفله الإسلام ولا أهمله، فروى أبوهريرة أن النبي ﷺ قال : « من كان له شعر، فليكرمه ¹ ويكون ذلك بالدهن، وما يجري مجراه مما يحسن به الشعر، ويصونه من الشعث والقمل والوسخ ²؛ وكان رسولنا ﷺ أسوة لنا في إصلاح شعره ودهنه، حتى أنه إذا اعتكف العشر من رمضان - وبيته ملاصق للمسجد - رجّله له عائشة رضي الله عنها مثلما قالت : " كان رسول الله ﷺ إذا اعتكف يدني إليّ رأسه، فأرجّله ³ وهذا حتى يسقط ما علق به في بيته لا في المسجد؛ ومرة رأى رجلاً ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه ليصلحهما، ففعل ثم رجع إليه، فقال رسول الله ﷺ : « أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان ⁴ »؛ وهكذا كان النبي ﷺ مثلما يرشد أصحابه في دينهم يرشدهم أيضاً في دنياهم، حتى يجمعوا بين التقوى وجمال المخبر مع النظافة وجمال المظهر، في الشعر والثياب وغيرهما، ولا يبالغوا في النقشف أو التنعم، وإنما ينبغي التوسط والاعتدال .

الفرع الثالث : طلاقة الوجه :

ديننا يحث على الخير مطلقاً، ويرشدنا ألا نحتقر منه شيئاً ولو بدا لنا ضئيلاً أو هيناً، خاصة إن كان لا يكلفنا ديناراً ولا درهماً، ومثاله لقاء بعضنا بعضاً بالتبسم عوض التعبس والتجهم؛ روى أبو ذر عن النبي ﷺ قوله : « لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق ⁵ أي سهل منبسط؛ بل جعلها من الصدقات، فقال : « تبسمك في وجه أخيك لك صدقة ⁶ » وكان النبي ﷺ كذلك، حتى قال عبدالله بن الحارث بن جزء : « ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ ⁷ رغم ثقل الرسالة التي كان يحملها .

¹ رواه أبوداود (ك الترجل، ب في إصلاح الشعر، ر 4163، 240/6) وحسن ابن حجر إسناده، ينظر: فتح الباري (368/10)

² ينظر: المنتقى شرح الموطأ (269/7)

³ رواه البخاري (ك الاعتكاف، ب الحائض ترجل رأس المعتكف، ر 2028، 48/3) ومالك (ك الاعتكاف، ب ذكر الاعتكاف، ر 866، 419/1) ومن طريقه مسلم (ك الحيض، ب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله، ر 297، 244/1)

⁴ رواه مالك (ك الجامع، ب إصلاح الشعر، ر 2732، 538/2)

⁵ رواه مسلم (ك البر والصلة والآداب، ب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، ر 2626، 2026/4)

⁶ رواه الترمذي (ك أبواب البر والصلة، ب ما جاء في صنائع المعروف، ر 1956، 339/4) عن أبي ذر

⁷ رواه الترمذي (ك أبواب المناقب، ب في بشاشة النبي صلى الله عليه وسلم، ر 3641، 601/5)

فالابتسامة تضفي على الوجه بشراً وجمالاً، وتبث السرور والانشراح، مما يزيد في الألفة والتودد بين الناس والجلوس إلى بعضهم بعضاً؛ هذا من جانب، ومن جانب آخر تبين هذه الأحاديث وأمثالها، كمال الإسلام ويسر العمل بأحكامه وتوجيهاته، وسهولة نيل الحسنات فيه؛ مما يجلي جماله وجلاله؛ ويثبت الخيبة والخسران على من تقاعس عن ذلك، وانشغل بهذه الدنيا ونسي الآخرة.

الفرع الرابع: رائحة الأفواه:

إن المخالطة بين الناس باقترابهم من بعض، تثير أحياناً بأن تفوح من أجسادهم أو أفواههم روائح طيبة أو كريهة، وقد مضت الإشارة للجسد عند الحديث عن الاغتسال والتطيب للجمعة تجملاً ولإزالة رائحة العرق، أما رائحة الأفواه - إن كانت كريهة - فهي مدعاة للابتعاد عن صاحبها واجتناب محادثته؛ لذا راعاها الإسلام حين شرع الاستياك، ونهى من أكل الثوم عن الذهاب إلى المسجد؛ فأما الأول فقد حث عليه رسول الله ﷺ حتى قال: «لولا أن أشق على أمتي - أو على الناس - لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»¹ وكان هو أيضاً كثير التسوك مثلما روت عائشة " أن النبي ﷺ كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك"² بل وهو على فراش الموت وقد أثقل عليه المرض، كانت عائشة تكسره له، مثلما قالت: "دخل عبد الرحمن بن أبي بكر، ومعه سواك يستن به، فنظر إليه رسول الله، فقلت له: أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن، فأعطانيه، ففضمته ثم مضغته، فأعطيته رسول الله فاستن به، وهو مستند إلى صدري"³ وكل هذا يدل على ملازمته ﷺ للسواك حتى وفاته، ولم يترك حال ضعفه؛ أما الثاني فيروي ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال في غزوة خيبر: «من أكل من هذه الشجرة - يعني الثوم - فلا يقربن مسجدنا»⁴ مع في ذلك من ترك فضل كبير، وقاس العلماء على هذا مجامع الصلاة غير المسجد كمصلى العيد والجنائز، ومجامع العلم

¹ رواه مسلم (ك الطهارة، ب السواك، ر 252، 220/1) ومالك (ك الصلاة، ب ما جاء في السواك، ر 170، 111/1) ومن طريقه البخاري (ك الجمعة، ب السواك يوم الجمعة، ر 878، 4/2) عن أبي هريرة

² رواه مسلم (ك الطهارة، ب السواك، ر 253، 220/1)

³ رواه البخاري (ك الجمعة، ب من تسوك بسواك غيره، ر 890، 4/2)

⁴ رواه البخاري (ك الأذان، ب ما جاء في الثوم الني والبصل والكراث، ر 853، 170/1) ومسلم (ك المساجد ومواضع الصلاة، ب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها، ر 561، 393/1)

والذكر والولائم دون الأسواق ونحوها¹ "وأما الروائح التي تقرب من الثوم، كالبصل والكراث، فقال مالك : هما كالثوم، وإن كان الفجل يؤدي فلا يدخل من أكله المسجد"² والمنع في جميع هذه إن كانت نيئة، لقول عمر عن البصل والثوم : "فمن أكلهما فليمتهما طبخاً"³ كي تذهب رائحتهما، مما يدل أن النهى مقتصر على النيء⁴؛ وقد يلحق بالثوم ونحوه أكل السمك إن لم يغير صاحبه رائحة فمه ويديه بشيء طيب .

الفرع الخامس : زينة المرأة :

سبق القول أن الإسلام لا يعارض الفطرة التي فطر الله عز وجل الناس عليها؛ والمرأة مفطورة على التزين أكثر من الرجل، لذا أبيح لها ما لم يبح له، من ذلك :

- لبس الحرير والتختم بالذهب، مثلما روى علي عليه السلام فقال : "إن نبي الله ﷺ أخذ حريراً فجعله في يمينه، وأخذ ذهباً فجعله في شماله، ثم قال : « إن هذين حرام على ذكور أمتي »"⁵ وفي رواية بزيادة : « حل لإنائهم »⁶ وقال البراء بن عازب، رضي الله عنهما : "نهانا النبي ﷺ عن سبع : نهانا عن خاتم الذهب، وعن الحرير ..."⁷؛ ومثل الخاتم : الأقراط والأساور والقلائد ونحوها مما هو معروف بإباحته للنساء.

- الاختضاب، فلها أن تجعل الحناء في يديها ورجليها؛ قالت عائشة : "قد كنا عند النبي ﷺ ونحن نختضب، فلم يكن ينهانا عنه"⁸

وكذلك لها أن تفعل ما تتركه المعتدة من الزينة مثلما قال النبي ﷺ لأم عطية : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد فوق ثلاث إلا على زوج، فإنها لا تكتحل ولا تلبس ثوباً مصبوغاً، إلا ثوب عصب »⁹ وغير ذلك مما هو معروف أنه مشروع لها كالأقراط والقلائد .

¹ ينظر : النووي أبوزكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط 2، 1392 هـ (48/5)

² المسالك في شرح موطأ مالك (480/1)

³ رواه مسلم (ك المساجد ومواضع الصلاة، ب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها، ر 567، 396/1)

⁴ ينظر : إكمال المعلم بفوائد مسلم (500/2)

⁵ رواه النسائي في السنن الكبرى (9382) وأبوداود (4057)

⁶ رواه ابن ماجه (3595) ورواه الترمذي (1720) عن أبي موسى الأشعري وصححه

⁷ رواه البخاري (5863)

⁸ رواه ابن ماجه (656)

⁹ رواه البخاري (5342) ومسلم (938)

ومن حفظ زينة المرأة، أن شرع الإسلام في الحج حلق الرأس للرجال دون النساء، وإنما يكتفين بالتقصير .

المطلب الثالث : الجمال في الطبيعة والبيئة :

سبق ذكر بعض ما جاء في القرآن الكريم من زينة الأرض بالاختصار، وما امتن الله عز وجل به علينا، ولفت نظرنا إليه؛ وها هي السنة النبوية ترشد صراحة وضمناً إلى الحفاظ على جمال الطبيعة والبيئة عموماً، بإبعاد ما يفسد ويضر، وفعل ما ينفع ويسر.

فمثال الأول، إمالة الأذى عن الطريق من حجر أو شوك ونحوهما لئلا يتأذى الناس؛ ورغم أنها أدنى شعب الإيمان كما في الحديث : « الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمالة الأذى عن الطريق، والحياة شعبة من الإيمان»¹ إلا أن فضلها عظيم تتحقق به المغفرة، فقد روى أبو هريرة، أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشي بطريق، إذ وجد غصن شوك على الطريق، فأخره، فشكر الله له، فغفر له »² فنزع الأذى من الطرق من أعمال البر المكفرة للسيئات، والمؤمن ينبغي له ألا يحتقر شيئاً من أعمال البر، فربما غفر له بأقلها³؛ وعليه ينبغي أن يُنحى ما يؤذي الناس ويشين مسالكهم، ومن باب أولى ترك تلوث الهواء وما يلحق الضرر بهم حتماً، لأن الأول قد يراه السالك فيجتنبه ولا يعثر، أما الثاني فلا محالة سنستدشقه ويدخل ذواتنا، ويتأثر به كثير منا؛ فأين نحن من جمال الشوارع والساحات، ومتى تغدو النظافة سلوكاً يومياً لدى الأفراد والجماعات، فلا نرى الأطفال يفسدون الجدران والمرافق العامة، ولا البالغين يرمون النفايات، ويتركون بقايا الطعام في المتنزهات والشواطئ والغابات.

¹ رواه مسلم (ك الإيمان، ب شعب الإيمان، ر 35، 63/1) عن أبي هريرة

² رواه مالك (ك الصلاة، ب ما جاء في العتمة والصبح، ر 346، 190/1) ومن طريقه البخاري (ك الأذان، ب فضل التهجير إلى الظهر، ر 652، 132/1) ومسلم (ك الإمارة، ب بيان الشهداء، ر 1914، 1521/3)

³ ينظر : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق : مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1387 هـ (12/22)

ومثال الثاني، تحويل أرض جدداء إلى جنة غناء، مثلما روى سعيد بن زيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له، وليس لعرق ظالم حق»¹ وإحيائها - شرط ألا تكون ملكاً للغير - يكون بعمارتها، مثلما روت عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق»² وهكذا يحب الإسلام أن تعمّر الأرض لا أن تخمد أو تعطل، ويجوز حتى لأهل الذمة ذلك، لأن "من" لفظ يفيد العموم؛ ولا يخفى على أحد ما في إحياء الأرض من فوائد جمّة، كطيب الثمرة وجمال النظرة، والاستغلال والحماية من التصحر والانجراف؛ فاهتماماً بالأرض وزراعتها - الذي هو أهم مورد غذائي للإنسان - كان التشجيع على ذلك بامتلاكها، هذا حظ المسلم في دينه، أما في أخراه فيروي أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة»³ والمقصود بالإنسان هنا المضطر، أو من أكرمه صاحب الغرس أو الزرع، وليس الرخصة في أن يأكل دون إذن أو حاجة؛ فهذا ما لا يقبله الشرع ولا الطبع؛ ولمن زرع أو غرس جزيل الثواب يجده في آخرته.

وهكذا يدفع الإسلام - بهذه الوصايا والواجبات - أتباعه إلى المحافظة على البيئة والمحيط، وذلك بحفظ الغذاء والهواء والماء، مما يضفي جمالاً ورونقاً على الطبيعة؛ وتستصحب تعاليمه هذه وأمثالها حتى أثناء الحرب، مثلما جاء صريحاً في وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه للجيش: "ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا للمأكلة، ولا تحرقن نحلاً، ولا تغرقنه"⁴ فحتى في هذا الموطن لم تبح هذه الأشياء ونحوها إلا للضرورة، والضرورة تقدر بقدرها، خلافاً لمن نعيشه اليوم مع دعاة التحضر وحقوق الإنسان، ومالكي أسلحة الدمار الشامل؛ وأقوى الأمثلة لأفعالهم الفظيعة؛ ما وقع باليابان في مدينتي هيروشيما وناغازاكي في شهر أوت عام 1945، وما فعله الاستعمار الفرنسي بصحرائنا في شهر فبراير عام 1960، ولا زالت أثاره إلى اليوم يعاني منها الناس في مناطق الاختبار.

¹ رواه أبوداود (ك الخراج والفيء والإمارة، ب في إحياء الموات، ر 3073، 680/4) والترمذي (ك أبواب الأحكام، ب ما ذكر في إحياء أرض الموات، ر 1378، 654/3) والنسائي (ك إحياء الموات، ب من أحيا أرضاً ميتة ليست لأحد، ر 5729، 325/5)

² رواه البخاري (ك المزارعة، ب من أحيا أرضاً مواتاً، ر 2335، 106/3)

³ رواه البخاري (ك المزارعة، ب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، ر 2320، 103/3) ومسلم (ك المساقاة، ب فضل الغرس والزرع، ر 1553، 1189/3) عن حذيفة

⁴ رواه مالك (ك الجهاد، ب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو، ر 1292، 577/1)

الخاتمة :

كانت هذه جولة بين ظلال القرآن الكريم والسنة النبوية الفيحاء، لسوق أمثلة عن الذوق الجمالي في ديننا، ومدى ما بلغ فيه :

فهو في الاعتقاد، كان من سبل الاستدلال على وجود الله تعالى ووحدانيته، بالدعوة إلى النظر في ملكوت السموات والأرض من نجوم وكواكب واخضرار.

وفي التعبد، كان بارزاً حين اشترطت أو استجبت النظافة والطهارة وحسن الهيئة في كثير من العبادات، خاصة في الصلاة، والذي زاد الأمر بهاء تكرارها يومياً.

وفي مصالح الإنسان وما به قوام حياته؛ كان التمثيل بدفع ما يشين الطبيعة من القذى والأذى، وجلب ما يزينها من غرس وزرع.

ويتضح مما سبق في البحث من أمثلة، أن الأمثلة عن الذوق الجمالي في الإسلام لا تعد ولا تحصى، وبعضها أشهر من أن يذكر، وقد تركت كثيراً منها - لأنه لا تفي بها هذه الورقات - مما هو ماثوث بين ثنايا ضرب الأمثال والقصص، كقصة يوسف عليه السلام.

ولقد ورث المسلمون هذا الحس الجمالي من دينهم، فطبعوا به دنياهم، حتى متعوا به الأبصار في النقش والزخرفة، وعمموه في البيوت والقصور والمساجد والأواني واللباس والخطوط وغيرها، مما يعسر حصره.

إننا اليوم - كلاً حسب علمه ومهارته - مطلوب منا - كتابة وفناً وغيرهما - إبراز جمال الإسلام حسياً ومعنوياً، بنشر قيمه التي لا تضارع، وأثرها في الحياة، كسبقه إلى الحض على الطهارة والاخضرار؛ ويومها لن يتردد العقلاء من غيرنا أن يتجملوا به وإن لم يعتنقوه، وأحدث مثال ما يستفاد من وصاياه في الوقاية من فيروس كورونا كالنظافة والحجر الصحي؛ والله أسأل لي ولكم التوفيق والسداد .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

- 01- ابن العربي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري، المسالك في شرح موطأ مالك، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1428 هـ / 2007 م
- 02- ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط 1، 1408 هـ / 1988 م
- 03- ابن حجر أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت-لبنان، 1379 هـ
- 04- ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبدالكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1387 هـ
- 05- ابن فارس أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399 هـ / 1979 م
- 06- ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط 1، 1403 هـ / 1983 م
- 07- ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، السنن، التحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط 1، 1430 هـ / 2009 م
- 08- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط 1، 1430 هـ / 2009 م
- 09- الباجي أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي، المنتقى شرح الموطأ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة-مصر، ط 2، د.ت.
- 10- البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق وبيروت، ط 2، 1403 هـ / 1983 م
- 11- بن دريد أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط 1، 1987 م
- 12- البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، المحقق: أحمد عصام الكاتب، دار الأفاق الجديدة، بيروت-لبنان، ط 1، 1401 هـ
- 13- الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى بن سؤرة الترمذي، السنن، التحقيق: إبراهيم عطوة عوض، شركة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط 2، 1395 هـ / 1975 م
- 14- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت-لبنان، 1414 هـ / 1994 م
- 15- الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط 4، 1407 هـ / 1987 م
- 16- الحاكم أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط 1، 1411 - 1990

- 17- الرازي أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان ، ط 3، 1420 هـ
- 18- الطاهر بن عاشور محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 هـ
- 19- الغزالي أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت-، لبنان د ط، 1402هـ/ 1982 م
- 20- الفيروزآبادي أبوطاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق : مكتب تحقيق التراث بإشراف : محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان ، ط 8، 1426 هـ / 2005 م
- 21- القاضي عياض أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق : د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، المنصورة- مصر، ط1، 1419هـ/ 1998م
- 22- مالك أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي، الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي، تحقيق : د. بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، د.ت.
- 23- مسلم أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري، الصحيح، المحقق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت
- 24- النسائي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، السنن الكبرى، حققه وخرج أحاديثه : حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه : شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط 1، 1421هـ/ 2001 م
- 25- النووي أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط 2، 1392 هـ